

مكتبة تفتح بعد منتصف الليل

حمادة حامد محمود نور الدين

مكتبة تفتح بعد منتصف الليل

سالم عبد العال كان حارس مكتبة الحي العامة من واحد وعشرين سنة، وكان بيعرف كل كتاب فيها بريحته. مش كلام مجازي: كان فعلًا يقدر يفرّق بين ريحة الورق الأصفر القديم وريحة الورق الأبيض الجديد، وريحة الكتب اللي حد بيقراها من اللي محدش فتحها من سنين. الريحة دي، بالذات، كانت بتوجعه.

المكتبة كانت على وشك الإغلاق. قرار البلدية نزل مطبوع وموقّع: آخر الشهر، المبنى يتهدم ويتباع أرضه، والكتب تتنقل لمخزن المحافظة، يعني تتحبس في صناديق لحد ما تاكلها الأرضة. سالم كان عارف إن مفيش حد هيقرأ القرار غيره، زي ما كان عارف إن مفيش حد هيدافع عن المكتبة غيره، فحط القرار في درج مكتبه وقفل عليه، زي ما بيقفل على مصيبة.

الحكاية بدأت قبل الإغلاق بأسبوع، لما لاحظ إن كتاب «ديوان الحي» — كتاب قديم مجلد بالجلد البني، محدش يعرف مين حطه في المكتبة أصلًا — بيتبدل مكانه كل ليلة. أول مرة لقاه في رف التاريخ وهو حاططه في رف الأدب. رجعه. تاني يوم لقاه على

طربيزة القراءة الكبيرة، مفتوح على صفحة فاضية. قفله ورجعه. تالت يوم لقاه واقف على عتبة الباب، واضح إنه مستنيه هو بالذات.

سالم ما كانش راجل بيصدق الخرافة، بس كان راجل بيحترم النظام، والكتاب كان بيكسر النظام كل ليلة. دور على تفسير عقلاني: فتح درج المفاتيح عشر مرات، اتأكد إن مفيش مفتاح تاني، وسأل عامل النضافة اللي بييجي الصبح — الراجل استغفر ربنا من مجرد السؤال. حتى الشبابيك، سالم كشفها واحدة واحدة، ومقفولة كلها من جواه، والشبكة سليمة. فرابع يوم قرر يبات في المكتبة.

جاب معاه عدة البيات: شنطة فيها بطانية قديمة وترمس شاي وكسرات عيش وطماطم، وكنبته على الكرسي ورا مكتبه بحيث يشوف رف الأدب كله. آخر لحظة قبل ما يطفي النور، بص للكتاب في مكانه، وقال له بصوت عالي، نص هزار ونص جد: «أنا قاعد. وراقب.» وطفى.

الساعات الأولى عدّت تقيلة. سالم كان بيعدّ نفسه من النوم: يعدّ الكتب في الرف اللي قدامه، يفتكر أسماء القراء اللي بطّلوا ييجوا

واحد ورا التاني، يسمع صوت الحي وهو بيروح — آخر مواصلة، وصوت عجل، ونباح كلب بعيد، وبعدين السكون الكامل بتاع البلد بعد نص الليل. نص الليل عدّى والدنيا ساكتة، غير صوت التكييف القديم اللي بيكح كل شوية. وفي الثانية إلا ربع، سمع الصوت: ورقة بتتقلب. واحدة بس. طبعها تاني، زي حد بيقرا. سالم وقف مكانه، ما نطقش، وشاف باللمبة الصغيرة اللي على مكتبه إن باب رف الأدب مفتوح، وهو متأكد إنه قفله. «ديوان الحي» كان واقف على طرف الرف، ورقه بيترفرف كأن نسمة عدّت، وفي نص الليل، الصفحات وقفت على صفحة معينة وثبتت.

سالم قرّب ببطء، زي واحد بيقرب من عصفورة. الكتاب كان مفتوح على صفحة فيها قايمة أسماء، مكتوبة بخطوط مختلفة، كل خط لونه غير التاني، كأن كل اسم كتبه صاحبه بنفسه. وجنب كل اسم تاريخ. قرا أول سطرين وما فهمش، بس تالت اسم وقف قلبه: «شكري الطوخي» — عم شكري، اللي كان بييجي المكتبة كل يوم عشرين سنة، ويقعد على التربيزة دي بالذات، وبطّل ييجي فجأة

من خمس سنين من غير ما حد يعرف ليه. والتاريخ اللي جنب اسمه كان بالضبط الأسبوع اللي اختفى فيه.

رابع اسم: «نبيلة رزق»، مدرّسة اللغة العربية اللي كانت بتستعير دواوين كل شهر، وبطّلت. خامس اسم عرفه، وسادس، وسابع. كلهم ناس من الحي، وكلهم كانوا بيقراوا، وكلهم بطّلوا في نفس التاريخ اللي مكتوب جنب أسماءهم.

سالم قلب الكتاب لآخر صفحة مكتوبة، ووقف.

آخر اسم في القايمة كان اسمه. «سالم عبد العال»، والتاريخ جنبه: بكرة.

بكرة كان يوم إغلاق المكتبة نهائيًا.

نام قليل الليلة دي، وتاني يوم الصبح مشي في الحي يسأل. عم شكري لقاه قاعد على القهوة زي كل يوم، بس من غير جرنال، وهو ده اللي كان مستحيل يقعد من غير ورقة مقروءة قدامه. سالم قعد جنبه، وقاله بالهادي: «وحشتني المكتبة يا عم شكري.» الراجل بص له بصة غريبة، زي واحد بيفتكر حلم قديم، وقال: «بقولك إيه يا

سالم؟ أنا مش فاكر ليه بطّلت. بس الحقيقة... الحروف مبقتش بتستحملني. بفتح الصفحة، ألاقي السطور بتبهت قدامي، الكلام بيبقى زي مية على زيت. بحاول أركّز، يضيع مني. فشلت يا ابني، إلا إني نسيت إني فشلت لحد ما سألتني دلوقتي.»

ونبيلة رزق، لما قرع بابها، كانت لسه مدرّسة ولسه بتحب الكلام المرتب، بس لما سألها عن آخر ديوان استعارته، عينيها راحت لحتة بعيدة: «بحس إن القراءة بتاعت صنعة وأنا اتسرّحت منها. مش فاكرة امتى بالظبط، بس فاكرة إني صحيت يوم وحسيت إن الكتب مش بتكلمني. عرف يا سالم؟ زي ما تكون لغة اتعلمتها وعيشت فيها سنين، وبعدين رحت بلد مبتتكلمش بيها، والسنين عدّت، وبقيت بفكر بحروف مكسورة.» وبعدين سكتت، وبصتله، وقالت بصوت أقل: «أنت ليه بتسأل؟»

سالم ماقدرش يقولها إن اسمها في كتاب. بس لما قام ماشي، لاحظ حاجة خلته يقف: على الرف الصغير اللي في صالتها، الكتب كلها مقلوبة، ظهرها للحيطة، كأنها مش عايزة حد يقرا عناوينها. وكأنها هي، من غير ما تاخد بالها، بتخبي الحاجة اللي فقدتها.

سالم مشي في الشارع والدنيا بتغرق، وحاسس إن الحقيقة أثقل من أي خرافة: الكتاب بياخد القراء. مش بيموّتهم، ولا بيأذيهم، بس بياخد منهم الحاجة اللي كانت بتخفف عنهم الدنيا، وبيسيبهم يكملوا عادي، شكلهم عادي، وجواهم رف فاضي. والأسبوع الجاي، دوره هو.

وفي نفس الوقت، كان في سؤال بيقرصنه: إيه اللي بيحصل لو محدش جه؟ الكتاب بيكتب اسمك بتاريخ بكرة، وبكرة يجي، وانت تنسى. بس لو انت عرفت؟ لو رفضت؟

ليلة الإغلاق، سالم قفل باب المكتبة بالمفتاح من جواه، وولّع كل اللمبات، وحط «ديوان الحي» على تربيزة القراءة، وقعد قدامه. قال بصوت عالي في العتمة: «أنا عارف إنك سامع. وعارف إنك عايزني أستسلم زي اللي قبلي. بس أنا مش هستنى بكرة. أنا هقراك الليلة، كلك، من الغلاف للغلاف.»

وفتح الكتاب من أول صفحة.

الكتاب ما كانش قايمة أسماء بس. كان فيه حكايات: حكاية كل واحد في القايمة، مكتوبة بتفاصيلها الصغيرة اللي محدش يعرفها غير صاحبها. عم شكري وسرقته الأولى للبرتقال وهو عنده تسع سنين. نبيلة ورسايلها اللي ما اتبعتتش. وحكايته هو، سالم: أبوه اللي كان بياخده المكتبة وهو صغير ويقوله «الكتب بتستنى اللي يستاهلها»، وأول كتاب استعاره وضلمه فيه، ويوم بقى حارس وحس إنه وصل، والسنين اللي عدت وهو بيراقب الناس بتقل واحد واحد، والخوف اللي كان بيكبر فيه إن القراءة نفسها بتموت، مش بس المكتبة.

قرا لحد ما وصل للصفحة الأخيرة. الشمس كانت على وشك تطلع، والضلمة بقت رمادية، وصوت الشيال الأول في الشارع بدأ يوصل من بعيد. الصفحة كانت فاضية، غير قلم حبر قديم محطوط في نصها، كأنه مستنيه من زمان.

سالم خد نفس طويل. وفهم. الكتاب مش بيسرق القراء. الكتاب بيكتب حكاياتهم لحد ما يوصل لنهايتها، واللي يسلم نهايته لحد تاني يكتبها، يبقى اختار ينسى. النهاية لازم تكتبها بنفسك.

شال القلم، وكتب في الصفحة الفاضية، بخطه المرتعش شوية: «وفي اليوم ده، سالم عبد العال قفل باب المكتبة من جواه، وقعد يقرا لحد الصبح، ولما فتح الباب تاني يوم، كان لسه قارئ. وهيفضل قارئ.»

وحط نقطه، وقفل الكتاب.

تاني يوم، البلدية جهت تقفل المكتبة، لقت سالم نايم على التربيزة وراسه على إيده، و«ديوان الحي» مرجّوع على رف الأدب في مكانه الصح، ومقفول عليه زي أي كتاب محترم. الكتب اتنقلت للمخزن، والمبنى اتهدم في معاده، وسالم خد معاشه المبكر.

بس بعدها بشهر، سالم فتح في أوضة قدامية في بيته لافتة صغيرة: «مكتبة الحي». وكان فيها راك شوية كتب اشتريتهم من معاشه، وتربيزة قديمة، ولمبة قوية. وأول واحد دخلها كان عم شكري، اللي شاف اللافتة وهو ماشي، ووقف، وحس بحنين غريب مش فاهمه، ودخل يتفرج. وسالم حط قدامه «ديوان بدوي الجبل» وقاله: «جرب الصفحة الأولى بس.»

عم شكري فتح، ورمش مرتين، وبعدين قعد.

وأول ما أول سطر وضح قدامه تاني، سالم رجع لركنه الصغير، وطالع فوق، على أعلى رف في المكان، فيه كتاب مجلد بالجلد البني، واقف في مكانه، وساكن، ومحترم، زي ما الكتب كلها المفروض تكون.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.pages.dev